أوغمرل ..

بقلم: مهدي عيسى الصقر

لنحطم الاغلال أولا ، فالدنيا لا تضحك للعبيد اذا ضحكوا ، إنها تضحك للاحرار .. اما نحن ، فانها تضحك منا ، لاننا أرقاء وتسخر بنا ، لاننا . أقنان ، مسخرون ..

— ١ —

ولم يطق أحدهم .. فانفجر صائحاً .

— ماذا دهاك ؟ بؤس ، شقاء . فقر .. مرض .. استعمار تنوح ، تنوح ليل نهار ، لا يكاد يضمنا مجلس . حتى تجعل محور الحديث .. هذه المصائب .. وتشيع في النفوس الكآبة والضيق ، هل نحن في مأتم ..؟ تمتع باللذات .. اغتنم الفرص ارفع هذا المنظار الأسود عن عينيك ..

— هه . منظار أسود .. لست بحاجة الى منظار .. انى أرى الحياة بالعين المجردة ، انها سوداء .. ان حياتنا الحاضرة جحيم ، انها ذل وعبودية .

— ليت الحياة جحيم .. إن امثالك ، هم الذين يجعلون منها جحيما .. إضحك يا أخي .. أضحك للدنيا تضحك لك .

— أضحك للدنيا !؟ ضحكت لها فضحكت منى .. لنحطم الاغلال أولا .. فالدنيا لا تضحك للعبيد اذا ضحكوا . انها تضحك للاحرار .. أما نحن ، فانها تضحك منا ، لاننا ارقاء .. وتسخر بنا لاننا اقنان ، مسخرون .

وخيم السكون على الزملاء الاربع .. وأحسوا رغم الضجة التي كان يثيرها حولهم رواد المقهى ، ورغم الغناء الصاخب الذي كان ينبعث من المذياع . بصمت ثقيل .. يجثم كالكابوس على نفوسهم ،

وقال آخر ليحطم هذا الصمت الخانق ،

— يا أخي تفاءل ، ولا تكن متشائماً . ان الحياة جميلة .

— انا لست متشائماً .. لكن التفاؤل الذي يجعلنا نتصام عن صليل السلاسل والقيود التي تثقل كواهلنا .. ويوهمنا باننا احرار سعداء ، خنوع .. تفاؤل السادرين النيام .. انه مخدر ..

وعاد الصمت الثقيل يفرض نفسه على جو الجلسة .. وظلت كلمات الفتى تدوي في آذان زملائه الثلاثة .. تفاؤل السادرين النيام .. انه مخدر ،

لكن الكلمات كانت تموت في آذانهم .. دون أن تجد لها طريقا الى نفوسهم .. ان لهم في الحياة آراء تختلف عن آراء صاحبهم ، وتبادلوا النظرات .. ثم التفت أحدهم الى مصطفى ، وقد ضاق ذرعا بهذا الحوار القاتم ..

— ألا تذهب معنا لتشرب لك كأسا ..

— لا .. أرجو ان لا تتقيدوا بي ، يمكنكم أن تنصرفوا .. واعذروني إذ كنت أزعجتكم بحديثي عن الاستعمار وعن البطالة .. على أي حال . الذنب ذنبكم لأنكم تقبلون على انسان .. متشائم ، كما تزعمون .

لم يزعجنا حديثك .. غير اننا نتألم من أجلك .

فقال مصطفى ساخراً .

— فقط !!؟

واقبلت متسولة ، رثة الثياب .. وعلى صدرها الضامر .. هيكل طفل ، شاحب الوجه .. وخلفها صبي يرتدي بقايا ثوب يبدي من جسده الكالح أكثر مما يخفي .. فوقفت عند المائدة .. وقبل أن تفتح فمها بالسؤال . قال وداد بصورة آلية وبسرعة ..

— على الله .. على الله .

واستدارت المرأة لتنصرف ، فاستوقفها مصطفى .. ودس في يدها ورقة نقود لمحها زملاؤه ، ففغروا افواههم ذاهلين ، ولم يستطع وداد أن يسكت .

— أنت مجنون !!

وسحبت المرأة ابنها من يده ، وانصرفت وعلى شفتيها ظل ابتسامة ، وفي عينيها بريق ، لم يلمحه أحد .. غير الفتى

— اعتبروني ثملا معكم ، عند ما تشربون الليلة .. سيكون ثمن كأسي . عشاء للمرأة واطفالها ..

فقال منير :

ـ ليس هذا علاجاً . !

ـ أعلم ان ليس هذا علاجا ، فهذا المبلغ ان أشبعها الليلة فلن يشبعها مدى الدهر .. وان استطعت ان أبعد شبح الجوع عن بائسة محرومة فلن أستطيع أن أبعده عن آلاف الأسر ، المشكلة خرجت عن الطرق .. ولم يعد علاجها الاحسان ، العلاج . وتوقف مصطفى وبعد لحظة صمت قال ساخراً . العلاج .. ان نتفاءل .. ونضحك .. اتضحك لنا الدنيا ،

ـ لا جدوى من الحديث معك .

وخرجوا من المقهى ـ فودعهم مصطفى ، وهو يشعر بأن الهوة ـ تتسع بينهم يوما بعد يوم .

ـ ٢ ـ

وتمر الأيام ، ويقبل مصطفى على صحبة باشاً على غير عادته ، فيستقبلونه مستغربين ، ويستشفون من عينيه ـ ان لديه حديثا يريد ان يقوله ـ لكنه ليس على حال ـ عن العبودية والعبيد ، فمعناه تقولان ان الحديث هذه المرة عن شيء آخر وكان مصطفى لديه كلام كثير ، يريد أن يقذف به الى الناس ليشركهم معه في هذه السعادة التي هبطت عليه فجأة ، ويفسحون له مكانا بينهم ، ويجلسون وكلهم آذان متحفزة تنتظر لتلتقط ما يتفوه به مصطفى ، يريدون ان يعرفوا السر في هذا التبدل ، وتمر فترة صمت ، لكنه صمت يختلف عن ذلك الصمت الثقيل الذي كان يخيم عليهم ، حين ينتهي مصطفى من استنزال اللعنات على رأس المشاكل ، الاستعمارية ويتكلم الفتى فيسمعونه يقول :

ـ حقا ان الدنيا تضحك ، لكن متى ـ عندما تضحك في وجهك امرأة حسناء .

ولم يتمالك وداد ـ فهتف مقاطعا :

ـ وقع صاحبنا ولله الحمد ، لقد أصبح انسانا ـ كل كل يا أخي ـ كل ـ

ـ لم أكن اصدق ان من الممكن أن يحدث الحب بهذه السرعة . وكنت أظن ان هذا من هوس الكتاب الرومانتيكيين حتى كان قبل يومين ، انها رائعة ـ

فقال منير :

ـ رائعة ـ لا شك رائعة ، هذه الانثى التي اعادت اليك رشدك ـ ليست رائعة فقط ، إنها معجزة ،

وقال سام متلهفا ـ حدثنا كيف وقع هذا ؟؟

وكان مصطفى ينتظر هذا السؤال لينطلق ـ

ـ هل قرأت قصص الغرام الامريكية ، هل لاحظت الطريقة السريعة في التعارف ، لقد كان تعارفنا سريعا ، سريعا جداً ، صعدت الى السيارة فلم تجد لها مكانا ، وصعب علي ان تقف امرأة ، وتظل تترنح كلما اهتزت السيارة ، فنهضت واقفاً ، ودعوتها الى الجلوس ، فشكرتني بعينها ، وقبل أن نصل الى [حي الارمن] ، هبط الراكب الذي كان يشغل الكرسي الى جانبها فرأت أن ترد الجميل ، فتنحت وأشارت برأسها ان اجلس ، فجلست ، ولا أعرف كيف بدأنا الحديث بعد ذلك ، الذي اعرفه اننا تحدثنا في تلك اللحظات القصار ، عن كل شيء ، وعن لا شيء ، ـ لكم هي جميلة هذه الانثى ـ وهبطنا [العشار] على أن نلتقي ـ هكذا بدأ حبنا ـ تماما كما يصوره الرومانتيكيون ـ

واخذ يرنو بعيون حالمة ـ الى الشط الجبار ـ الذي تجثو على ضفافه مدينة البصرة ـ شط العرب ، وران صمت صمت مرح ـ أحس وداد ومنير وسام خلاله بالرضى ، لان مصطفى أحب ، سيكون حديثه ، مرها بعد الآن ، ولن يفكر في غير نفسه ـ حبه ، وفتاته ، وقال منير :

ـ الحب خلاق ـ خلاق عظيم ، وأردف سام ـ

ـ ما الانسان سوى مجموعة من الغرائز المتباينة ، فاذا أثيرت واحدة ـ تسلمت القياد ، وضعف تأثير الغرائز الاخرى ، ان زمام مصطفى أصبح في يد عزيزة الحب ، أو بمعنى أصح ، غريزة الجنس ، جميل أن تكون السيطرة بهذه الغريزة ، ان كل شيء في الحياة يبدو جملا ، مبهجا ، عندما يحب المرء ، انه يضفي من نفسه على القبح جمالا ، وقال وداد يريد ان يحث مصطفى على الاستمرار في هذا الحديث الممتع اللذيذ ـ

— هلا وصفت لنا صاحبتك ؟؟

— اصفها لكم ـ ! ان ملامحها لا تنطبق مع المقاييس التي يحددها بعض الكتاب ـ للجمال في قصصهم ورواياتهم انها جعلتني استخف هذا النوع من الوصف .. انف طويل، وفم صغير ، وشفاه دقيقة فهي ليس لها انف طويل ، بل انف قصير .. ويكاد يكون عريضاً ، وشفاهها أقرب الى الغلظة ، وعيونها ليست كعيون المها مثلا ، لكنك تستطيع أن ترى العالم باسره فيها ، إن أحسن صفة لها هي ان تقول . رائعة .

وصمت مصطفى ، وعرف أصحابه أنه لا يزال لديه حديث طويل ، لكنه حديث يريد أن يحتفظ به لنفسه ، فغادروا المقهى ، وودعهم الفتى وهو يحس انهم قريبون الى قلبه كما لم يكونوا في أي وقت مضى .

— ٣ —

وتمر الأيام ، ويجد الثلاثة صديقهم مصطفى جالساً في المقهى بوجهه الصارم القديم ، فيحسون إن شيئاً قد حدث، ويقبلون عليه مستفسرين .

— خير ، انشاء الله .

— انه خير . في الواقع .. لقد قطعت علاقتي [باميلده] عدت الى صوابي ..

— يا للخيبة ، عاد الى ضلاله .

تنطلق هذه الجملة من فم وداد ، تصور خيبتهم فيه أحسن تصوير ، وسأل منير :

— كيف حدث هذا ؟

— الحقيقة اني انا الذي أردت ذلك ، عاملتها بعنف ، ضقت بها ذرعا .. لم أكن لأحب ، اعني لم أكن لتسيطر على كياني امرأة واحدة ، لا أريد أن أضحي بنفسي عند أقدام انسان ، فرد واحد . ارادت أن تجعل مني عبداً .. وقد استطاعت أن تفعل ذلك مدة من الزمن .. نسيت خلالها كل شيء سواها ، نسيت (الكل) .. اني اشعر بالاختناق من كثرة القيود والأغلال ، وهي تريد أن تضع في عنقي غلا جديداً . كما انا سعيد الآن ، لاني أرى الحياة .. على حقيقتها واشارك الاخرين شعورهم . كنت عملا . أعمى ، تتراقص الاشياء أمام بصري .. كما تتراقص امام شارب [الكوكايين] . اني أريد امرأة ، لكن امرأة من طراز آخر . امرأة تدفعني الى الامام ، لا امرأة تقيدني وتشل قواي ، امرأة تلهب النار في دمي ، لكن ليست نار الشهوة العمياء ، نار تصهرني فتجعلني أكثر احساسا بآلام الحمساء .

تعني انك تريد امرأة مجنونة مثلك ، ابحث عنها يا أخي في مستشفى الامراض العصبية

— اجل انا مجنون ، من يحطم الاغلال إلا مجنون . المجانين ، اما [العقلاء] فلن يفعلوا شيئا ، لان عظام الموتى تثقل كواهلهم ، وتمنعهم عن العمل ، لكي تتحرر علينا اولا أن نقطع هذه السلاسل التي تشدنا الى القبور .. يجب أن نخلق حياة جديدة ، وتاريخا جديداً .

وقال منير وفي صوته ألم وحسرة :

— عاد الى محاضراته ، هيا بنا . فسينحدر الى وصف الوجوه الذابلة والضلوع الناتئة ، والامراض وغير هذه الاشياء التي تصدم النفس ، وترغم المرأ على أن يلقي ما في جوفه .

وخرجوا من المقهى ، وساروا صامتين فقال وداد :

— يا أخي فلنا لك ألف مرة ، انظر الى الحياة بمنظار أبيض .

— هه .. منظار أبيض ، ان المنظار الابيض هذا ، الذي تتحدثون عنه . كالماء الابيض الذي يفشي العيون فيعميها ، أترون هذا الخفاق فوق السارية ، يرفرف في مدخل بلادكم ، فوق شط العرب : انه علم الاسياد ، اترون للعمود الذي يحمل العلم ، أين يغور أسفله ؟ يغور في أرضكم في قلوبكم ان كنتم تشعرون ، هل قال لكم منظاركم الابيض ان العلم المثبت بالأرض ، يرمز الى استعمار تلك الارض ، لا .. لان هذا المنظار لا يرى الاشياء على حقيقتها، لعله أوهمكم فقلب الألوان حتى ظننتم أنه علم البلاد ، أهذا هو المنظار الابيض الذي تريدونني أن انظر خلاله الحياة .

— كفى يا أخي .. علمنا ان الاستعمار رأس المشاكل،